ملف الفصل الرابع: خصوصية الأنواع الشعرية

المحاضرة الثالثة عشر: من البلاغة التقليدية إلى الرمز والأسطورة

– عرفت القصيدة العربية المعاصرة تحولات سريعة وكبرى على مستوى المضامين الشعرية فتنازعتها اتجاهات مختلفة، منها العودة إلى الذات ومحاولة سبر أغوارها (نازك الملائكة/ فدوى طوقان/ أمل دنقل/ عبد المعطي حجازي...، ومنها الاتجاه إلى تناول هموم الإنسان المعاصر وانشغالاته مما أدى إلى طغيان الحس المأساوي في ظل الهزائم العربية والانتكاسات.

ومنها الاتجاه "إلى الواقع السياسي المتجبر والضاغط على الإنسان العربي والذي أنتج نصوصا شعرية متمردة رافضة، كما عرف الشعر المعاصر تحولا واضحا على المستوى الفني والتشكيلي، ولم تعد الموهبة وحدها كافية لإنتاج نص شعري، ولم يعد الشاعر يقنع بالصورة الواحدة والنمط الواحد، بل يطمح إلى إنتاج نص شعري جديد كليا، لذلك تعددت مجالات الإبداع وتنوعت، فقد استعانت القصيدة المعاصرة بآليات وتقنيات الفنون الإبداعية الأخرى كالمسرح والتصوير والسينما، كما استعانت بتقنيات الفنون التشكيلية كالرسم والخط...فكانت أولى حركات التجديد على يد بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ومن عاصرهما، وصولا إلى جيل حركة الحداثة الشعرية، إلى مابعدها من مظاهر التجريب في القصيدة المعاصرة. وإذا كانت القصيدة القديمة تقوم على الصور الفنية التقليدية التي لا تخرج عن التشبيه والاستعارة والكناية، إضافة إلى الأساليب الإنشائية والمحسنات البديعية، فإن القصيدة المعاصرة مالت إلى توظيف الرموز بمختلف أنواعها، وإلى الغموض والبنية الدرامية وغير ذلك من الأساليب الجديدة.

توظيف الرموز في الشعر العربي المعاصر:

من أهم ما يلفت النظر في التجربة الشعرية العربية المعاصرة كثرة استدعاء الرموز بمختلف أنواعها (طبيعية وتاريخية ودينية وأسطورية وصوفية وشعبيه وثقافية...) وبطرق فنية تدعو إلى التوقف عندها وتأمل طبيعة هذه الرموز من ثراء وإثارة وتنوع في الدلالات. وإن ارتبطت جل الرموز بالتراث الإنساني وضربت بجذورها في عمق التاريخ، فإن الشاعر المعاصر احتمى بها للتعبير عن راهنة المعاصر وعن تجربته الخاصة.

أنواع الرموز في الشعر المعاصر:

تنوعت الرموز المستدعاة في الشعر العربي المعاصر فكان منها **الرموز التاريخية** وتمثلت خاصة في شخصيات تراثية من أزمنة مختلفة مثل (زرقاء اليمامة/ أبو ذر الغفاري/ هرقل/ صلاح الدين الأيوبي/ ...) و **الرموز الدينية** وقد تعددت مصادرها وتنوعت (القرآن كالريم/ الحديث النبوي الشريف/ الكتب المقدسة/ التراث الفقهي...) واحتلت قصة المسيح عليه السلام بكل ملامحها وتفاصيلها ومن كل مصادرها حيزا هاما في التجربة الشعرية وكانت فكرة الفداء والصلب من أكثر الملامح حضورا في الشعر المعاصر، لأن جل الشعراء تبنوا مواقف نضالية وتحملوا في سبيلها من العناء ما يجعل من قصة المسيح من المصادرها الأخرى غير الإسلامية (التوراة و الإنجيل) معادلا موضوعيا لمعاناتهم، مثل قصيدة "المسيح بعد الصلب" لبدر شاكر السياب، ومن الشعراء من وظف ملمح "العازر" الذي أعيد إلى الحياة، ومنهم من وظف ملمح خيانة التلميذ (الحواري) يهوذا لمعلمه" المسيح عيسى بن مريم عليه السلام" مثل قصيدتي الشاعر بلند الحيدري "يهوذا" و"توبة يهوذا". كما كان لملمح الابتلاء والمرض في قصة أيوب عليه السلام حظه في التجربة الشعرية لمعاصرة، فقد وظفها بدر شاكر السياب في قصيدتيه "سفر أيوب" و"قالوا لأيوب".

وللتعبير عن الصراعات الدامية الدائرة بين الإخوة الأعداء و الاقتتال على حطام الكراسي والممالك استحضر بعض الشعراء قصة الأخ الذي قتل أخاه لأول مرة في تاريخ البشرية (قابيل وهابيل)...وفي خضم السعي وراء الرموز التراثية القديمة وتوظيفها كمعادل موضوعي، تحول الشعراء إلى علماء في علم الميتولوجيا و التاريخ القديم، وكان **للأساطير** ألقها وسحرها الذي أغرى الشعراء بالتطلع

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

إليها و البحث في جذورها الموغلة في القدم، فمنهم من اكتفى بتقليد **الرموز الأسطورية** الغربية (سيزيف- بروميثيوس – أوليس- آفروديت- أوديب- إلكترا...

ومنهم من فضل العودة إلى التراث الشرقي والرموز الفرعونية والفنيقية والآشورية والبابلية، وبالغ الشعراء العرب المعاصرون في استدعاء الرموز الأسطورية حتى شكلت الظاهرة عندهم ما يمكن اعتباره منهجا شعريا جديدا –على رأي الناقد عز الدين إسماعيل- الذي أسماه المنهج الأسطوري، فقد أحس الشاعر المعاصر في ظل المتناقضات التي كانت تفجعه بمفاجآتها غير السارة بحاجة ملحة إلى هذا المنهج الأسطوري القائم على الخارق وغير المألوف وغير المتوقع، للتعبير عن أساطير هذا العصر الجديدة والمفجعة.

ومن الشعراء من صنع لنفسه **رموزا خاصة** جديدة أصبحت لصيقية بهم، دون غيرهم كرمز جيكور وبويب و المطر في التجربة الشعرية عند السياب،وقد عرفت قصيدته المطولة أنشودة المطر شهرة كبيرة وحظيت بدراسات نقدية كثيرة. ومثل رمزي الريح والناي في شعر خليل حاوي.

ومن الشعراء من عمل على **أسطرة شخصيات معاصرة أو حديثة** فأضفى عليها بعض الملامح الأسطورية، مثل ما فعل كل الشعراء العرب الذين كتبوا عن البطلة "جميلة بوحيرد" لما بلغهم نبأ سجنها والحكم عليها بالإعدام، وحولوها إلى شخصية بطولية أسطورية خارقة،كقول بدر شاكر السياب في قصيدته "إلى جميلة بو حيرد" :

عشتار أم الخصب والحب والإحسان تلك الربة الوالهه

لم تعط ما أعطيت لم ترو بالأمطار ما رويت

قلب الفقير

لم يلق ما تلقين أنت المسيح

أنت التي تفدين جرح الجريح

يا أختنا يا أم أطفالنا يا سقف أعمالنا

يا ذروة تعلو لأبطالنا

ما حز سوط البغي في ساعديك

إلا وفي غيبوبة الأنبياء

...تعلو بك الآلام فوق التراب

فوق الذرى فوق انعقاد السحاب

تعلين حتى محفل الآلهة...

وفي هذه البطلة كتب ما يقارب الأربعين قصيدة (نذكر منها قصيدة نزار قباني وسليمان العيسى. وعبد الوهاب البياتي..)

وهناك من الشعراء صنع رموزا معنوية خاصة به للتعبير عن رؤاه ومواقفه، كما فعل الشاعر الفلسطيني معين بسيسو في مسرحيته الشعرية "محاكمة كليلة ودمنة" للتعبير عن الخطر المحدق بالمثقفين.

–دواعي توظيف الرمز في الشعر العربي المعاصر:

أ– الدافع الفني:

مما لا شك فيه أن الشاعر العربي انفتح على الشعر الغربي والطروحات النقدية الغربية، وقد كان لدعوات الناقد ت.س إليوت بالعودة إلى التراث، أثرها على كل القراء في العالم، وكذا فكرة المعادل الموضوعي التي طرحها من منظور نقدي وإبداعي. والمعادل

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

الموضوعي مصطلح نقدي يعني استخدام الأسلوب الرمزي غير المباشر للتعبير، وهو بديل فني لما لا يريد الشاعر الإفصاح عنه.

-وعليه فإن الدافع الفني الجمالي يأتي في الدرجة الأولى من اهتمام الشعراء الرواد الذين استجابوا لمتطلبات القصيدة المعاصرة التي تقوم على دفقات شعورية قوية وحالات نفسية عميقة ومشاهد درامية مؤثرة، لأن جل الأساطير هي في ذاتها تركيبة دارمية تقوم على الصراع بين الشخصيات وتعتمد على المغامرات والخوارق، وقد لاحظنا أن الشاعر العربي المعاصر لم يتخير من الرموز التراثية إلا الشخصيات القلقة والفاعلة والمؤثرة والقائمة بدورها على الصراع والتحدي والرفض ورد الفعل.

-وقد ساهمت تلك الرموز في منح الرؤية الشعرية نوعا من الشمولية التي تجعلها تتخطى حدود زمانها ومكانها إلى أزمنة أخرى مشابهة.

-ووهبت النص الشعري المعاصر طاقات تعبيرية غير محدودة بما تملكه من قدرة فائقة على الإيحاء والتأثير.

-كما أن التوظيف الأسطوري يطرح مستويات مختلفة من التأويل، ويصنع نوعا من "المراوغة المتطرفة"-حسب "ولاس ستيفن - ويمتلك قدرة فائقة على التمنع عن الإدراك.

-إن الرمز عموما والرمز الأسطوري خاصة يخفي معنى آخر تحت المعنى الظاهر أو ما يعرف بـ(معنى المعنى)

-قد يؤدي توظيف الرموز إلى استثارة العجب وبالتالي التحفيز على القراءة وإعادة القراءة لكشف المعاني المتخفية.

- فالرموز وسيلة تعبير ككل الوسائل الأخرى ورسالة مشفرة تتطلب قراءة خاصة لفك رموزها، يقول رولان بارت: «إن الأسطورة نظام اتصال أعنى كونها رسالة، وهذا الفهم إنما يتيح لنا إدراك أن الأسطورة ليست موضوعا أو مفهوما أو فكرة وإنما صيغة دلالية أو شكل ما» وهي نمط كلامي يعلن داله عن نفسه في نحو غامض، فهي معنى وشكل في آن.

- إنها تقليد فني يكشف عن واقع طبيعي تاريخي أو فلسفي من خلال المجاز، تحول على يد بعض الشعراء إلى عملية تضليل وخداع وانتهى إلى شبه قفل أو كود -كما يقول بارت- يحتاج إلى قارئ متمرس يكشف مجازاته ويفك شفراته ويعيد إنتاج دلالاته.

-يرى رتشارد تشيز أن الأسطورة أدب يلون الطبيعي بفاعلية ماهو خارق للطبيعي، ويقول إن « الشعر أساس لا غنى للأسطورة عنه» وفي المعنى نفسه يقول شورر« الأسطورة أساس لا غنى عنه للشعر»، فكأن الأساطير والنصوص التراثية الأخرى أصبحت في حاجة إلى الشعر ليحيها ويعيد صياغتها من جديد، وفي المعنى نفسه يقول الناقد شورر: "الأسطورة أساس لا غنى عنه للشعر".

-إن التوسل بالرمز التراثي والأساطير -كما يرى اليوت- هو بمثابة طريقة لإضفاء شكل ومغزى على البانوراما الهائلة من العبث و الفوضى التي هي التاريخ المعاصر، وطريقة لضبط العواطف و الأفعال وتشكيلها على نحو أكثر دقة وفاعلية وحيوية.

ب- الدافع الاجتماعي والسياسي:

قد يلجأ الشاعر إلى الاحتماء بالرموز التراثية والاختفاء خلفها للتعبير عن موقف سياسي أو ديني ما تجنبا للملاحقات الأمنية والمضايقات، وانفلاتا من قبضة الأنظمة الدكتاتورية.

-إن الرموز وبخاصة الأسطورية وسيلة هامة من وسائل النضال والمقاومة عند جل رواد الشعر العربي المعاصر، يقول بدر شاكرالسياب "لم تكن الحاجة إلى الرمز، إلى الأسطورة أمس مماهي اليوم، فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني أن القيم التي تسوده قيم لا شعرية...فماذا يفعل الشاعر إذن؟ عاد إلى الأساطير، إلى الخرافات... عاد إليها ليستعملها رموزا، ليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد" (مجلة شعر -عدد3-سنة 1) ويقول في موطن آخر: «كان الواقع السياسي هو أول ما دفعني لذلك، فحين أردت مقاومة الحكم السعيدي بالشعر اتخذت من الأساطير- التي ما كان لزبانية نوري السعيد أن يفهموها-ستارا لأغراضي تلك-كما استعملتها للغرض ذاته في عهد قاسم» [1].

ويقول أيضا: «ففي قصيدة سربروس في بابل هجوت قاسما ونظامه أبشع هجاء دون ان يفطن زبانيته لذلك، كما هجوت ذلك النظام في قصيدتي الأخرى"مدينة السندباد"[2].

أشهر الرموز في الشعر المعاصر:

ظلت الأساطير طيلة التاريخ العربي الإسلامي منبوذة إلى عصر النهضة، وربما كان السبب في ذلك مزاحمة الأسطورة للنص الديني وهيبة الشعراء مما يتصل بها من أفكار وثنية تتعارض مع الدين، ولكن الشاعر المعاصر انفتح على كل الرموز التراثية خاصة منها الأسطورية لعمقها وقابليتها للتأويل واحتمالها لقراءات متعددة، فقد استعان الشعراء المعاصون بالموز الأسطورية لتفسير أزمة الإنسان الحديث وإعادة تقييم التجربة الإنسانية في ظل واقع مثقل بالمشكلات الحضارية [3].

ومن أشهر الأساطير المستدعاة آنداك أسطورة "الخصب والنماء" ممثلة في تموز وعشتار حتى سمي جيل من الشعراء بالتموزيين [4]. وإن اختلفت الطقوس والمراسيم والتسميات من قطر إلى آخر فإنها متماثلة في الجوهر، (عند البابليين إله الخصب تموز/ وعند المصريين أوزوريس/ وعند الفينيقيين والإغريق أدونيس... وهي كلها رموز ذات دلالة دورية واحدة عن الانبعاث من جديد والخصب والنماء... يجمع نسيجها بين متناقضات عدة "الموت والانبعاث/ الجدب والخصب/ الحزن والبهجة...) وكثيرا ما اتخذه الشعراء رمزا للتضحية والفداء وإستعادة الحياة الكريمة [5]. ومن أهم صو توظيف الرمز التراثي في القصيدة تقينية القناع.

– القناع في القصيدة المعاصرة:

القناع صورة من أهم صور توظيف الرموز في القصيدة المعاصرة، وأجملها وأصعبها في الوقت نفسه.

استعان الشاعر المعاصر بتقنيات الفنون الأخرى كالمسرح والتصوير والسينما وغيرها، في إطار ما يعرف بتداخل الأنواع والأجناس، فكان القناع واحدا من أهم وسائل التعبير الشعري المعاصرة.

– القناع المفهوم والماهية: [6].

تشير كلمة قناع في معناها اللغوي إلى دلالات متقاربة، فهي تستعمل لتغطية الوجه أو الرأس أو كليهما عند المرأة، كما تستعمل في خوذة الرجل المقاتل، جاء في الحديث «أتاه رجل مقنع بالحديد» كما تدل على الوجه الذي يظهر به المرء، فهم يقولون "ألقي على وجهة قناع الحياء " وقنعه الشيب منه خمارا" كأنه أخفى وجها وأظهر غيره، فيبدو وكأنه يرتدي قناعا.

عرفة البدائيون أثناء تأدية بعض الطقوس السحرية حتى لا تظهر بوجه الممثل الذي يؤدي دورها، واستخدمه الإغريق في مسرحهم ليتيح للممثل تقمص بعض الشخصيات، فالقناع هو أداة التلبس وبخاصة إذا تعلق الدور بشخصية أسطورية خيالية من شخوص الآلهة أو أنصاف الآلهة، يشي القناع بمكونات هذه الشخصية الجديدة جسميا ونفسيا و كأن الممثل عند ارتدائه القناع يسعى إلى إزاحة قسماته هو وملامحه الشخصية، لتحل محلها ملامح وقسمات تلك الشخصية التي يمثل دورها.

– والقناع مصطلح مسرحي لم يدخل عالم الشعر إلا في بدايات القرن العشرين، بصورة جديدة تأخذ عن المسرح بعض تقنياته ولكنها ليست مسرحا، أوجدت قصيدة القناع فضاء لنفسها في التجربة الشعرية العربية المعاصرة في مرحلة الستينيات، بعد أن تمكن الشعراء من النزعة الدرامية التي مكنتهم من قول كل شيء دون أن يعتمدوا على صوتهم الذاتي بشكل مباشر. يقول جابر عصفور: « إن القناع أحد الوسائط الأساسية التي يحاول بها الشاعر المعاصر اقتناص الواقع وإدخاله في شبكة الرمز، لعله يساهم بذلك في تغييره[7] والقناع «رمز يتخده الشاعر المعاصر ليضفي على صوته نبرة موضوعية شبه محايدة تنأى به عن التدفق المباشر»، وهو حيلة بلاغية ووسيلة من وسائل التعبير المعاصر، يبتعد بواسطته الشاعر عن الصوت الأحادي و الأسلوب المباشر ، ويضفي على النص شيئا من الموضوعية و الغموض الفني الشفاف، ويبتعد به عن الغنائية ويعبر بكل حرية عن رؤاه ومواقفه و أحاسيسه، فهو شخصية

تراثية منتقاة يندمج بها الشاعر ويجعلها تعبر نيابة عنه وتقول ما يشاء.
-كان الشاعر عبد الوهاب البياتي من السباقين إلى استخدام المصطلح والإشارة إليه في كتابه "تجربتي الشعرية" وتوظيفه في قصيدة "المسيح بعد الصلب" وعرفه بأنه « الاسم الذي يتحدث من خلاله الشاعر...متجردا عن ذاتيته»[8]

الشروط الفنية للقناع:

-ليست كل القصائد القائمة على استدعاء الشخصيات التراثية وتوظيفها قصائد قناع، فشرط القناع: اختفاء الشاعر تماما وحلول الشخصية الجديدة محله، بصوتها، ومواقفها وملامحها.

- لا بد من حسن اختيار الشخصية المناسبة من حيث أهميتها الفكرية والتاريخية وكذا من حيث أهميتها بالنسبة للتجربة الشعرية ومناسبتها لموضوع القصيدة.

-لابد من تجاوب الشاعر مع شخصية القناع وعمله على تنمية القناع و التفاعل معه، ولا يعني هذا التطابق بين القناع في النص الشعري والنصوص التراثية، فأحيانا يضطر الشاعر إلى تحوير الشخصية التراثية أو إضافة ملامح جديدة إليها حتى تنسجم وطبيعة التجربة الشعرية المعاصرة، وقد يضطر إلى توظيفها توظيفا عكسيا يخالف مدلولها وحقيقتها التراثية، فالشخصية في تقنية القناع تخضع -كما يرى صلاح فضل- لعملية تصفية واختيار وبعثرة وبناء لتتخلص من بعض عوالقها التاريخية و التراثية أو الواقعية، وإلى نوع من التصرف حتى تتلاءم مع روح الفكرة وروح العصر والجو العام لموضوع القصيدة، إنها أشبه بـ «تجربة تقويض أبنية قديمة،واختيار أثمن ما فيها لتشييد بناء جديد، لحمته وأكثر سداه ينعكس من واقع اجتماعي و فكري ووجداني مختلف[9].

4-صور القناع:

-القناع الكلي وفيه تشمل القصيدة جميع ملامح الشخصية التراثية المتقنع خلفها، وجميع ملامحها وموافقها وأقوالها، وهذا أمر صعب التحقق شعريا، لأنه يتطلب القصائد الطويلة (الديوان) واقتدارا فنيا كبيرا، ونمثل له بقصيدة سفر أيوب لبدر شاكر السياب المتكونة من عشرة مقاطع شعرية من السفر الأول حتى السفر العاشر، تقنع فيها بشخصية النبي أيوب عليه السلام للتعبير عن معاناته مع المرض وتفاؤله بالشفاء، ومثل ديوان مهيار الدمشقي لأدونيس.

-القناع الجزئي: الذي يكتفي فيه الشاعر بتوظيف ملمح واحد أو بعض الملامح من شخصية القناع للتعبير عن مواقفه.

- القناع الطردي: الذي يتوافق وطبيعة الشخصية التراثية، مثل قناع أبي ذر الغفاري عند الشاعر معين بسيسو.

- القناع العكسي: أو المقلوب وهو الذي يعكس الشخصية التراثية أويخالف الكثير من معطياتها مثل تحوير الشعراء لرمز السندباد وإضافتهم ملامح لم تكن موجودة. فالشاعر لا يتقيد بملامح الشخصية التراثية، بل يعكسها أو يضيف إليها مثل قناع السندباد في قصيدة رحل النهار لبدر شاكر السياب، وهو من أحسن أنواع القناع شريطة توفيق الشاعر في التلبس به.

مزالق توظيف الرموز في القصيدة العربية المعاصرة ومشكلاتها:

1-مراكمة الرموز وتكديسها في القصيدة الواحدة، مما يفقد النص عمق الطرح ويوقعه في السطحية،كقول يوسف الخال:

وقبلما نهم بالرحيل نذبح الخراف
واحدا لعشتروت
واحدا لأدونيس
واحدا لبعل...

وكما فعل الشاعر العراقي محمد جميل شلش في جل قصائد ديوانه "الحب والحرية".

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

2-غربة الرموز الموظفة عن وعي المتلقي العربي، مما يجعله في حاجة إلى قراءات وافية عنها، مثل قصيدة السياب "من رؤيا فوكاي" التي وظف فيها شخصية "كونغاي" الصينية، واضطر إلى شرح الأسطورة في الهامش.

3- طغيان الملامح المعاصرة على الملامح التراثية.

4-الغموض والغرابة نتيجة قصور الرؤية الشعرية.

5-التأويل الخاطئ للشخصية (كما فعل محمد عفيفي مطر في تعامله مع شخصية عمر بن الخطاب. في قصيدتيه "مرثية عمر" و "تطوحات عمر" حيث أظهره ضعيفا يائسا، شاكيا بخلاف ما نعرفه عن شخصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من قوة وصرامة وجد.

6- النمطية التي تفقد الرموز رمزيتها، وذلك بكثرة تكرارها عند جل الشعراء والتركيز على بعض الرموز دون سواها، كرمز المسيح.

7- الطول المفرط لقصائد القناع والذي يرهق المتلقي ويشتت ملامح الشخصية التراثية.

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور